فاطمة الزهراء والفاطميون

القسم الأول

فاطمة الزهراء

- أم الزهراء..
- نشأتها...
- زواجها...
- بلاغتها...
- في الحياة العامة...
- وفاتها...
- شخصية الزهراء...
- الذرية الفاطمية...

أم الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلًا من أخبار السيدة خديجة أم الزهراء رضي الله عنهما، ولكن هذا القليل كافٍ للتعريف بها، وبما يمكن أن تورثه بنيها من الخلائق والسجايا؛ لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الإفاضة في الأخبار إلا في التفصيل.

ومن جملة الأخبار القليلة التي حُفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة، وأنها رضي الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية: عاطفة المحبة الزوجية، وعاطفة الأمومة، وعاطفة الإيمان.

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش، لأنها جمعت إلى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة، وأهلها جميعًا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم إلا كان عَلَمًا في الحكمة والدراية، أو في الشجاعة والشمم، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام.

***

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة، فهي فاطمة بنت هالة التي ينتهي نسبها كذلك إلى لؤي بن غالب، وهالة بنت قلابة التي ينتهي نسبها إلى ذلك الجد الأعلى، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم، فكانت قافلتها إلى الشام تعْدِل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام.

وأهم من هذا جميعه بالنسبة إلى زوجة نبي، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة، أنها كانت مفطورة على التدين وراثةً وتربية.

فأبوها خويلد هو الذي نازع تبُّعًا الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه إلى اليمن، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك[1] من مناسك دينه.

(1) المنسك: الموضع يأتيه الإنسان ويتردد إليه في خير كان أو غيره، ومناسك الحج عباداته.

وقال السهيلي في الروض الأنف: «إن تبُّعًا رُوع في منامه ترويعًا شديدًا حتى ترك ذلك وانصرف عنه» فلا يبعد أن روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الإلهي إذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبَّع فتراءى له من المخوفات في منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه.

***

وابن عم السيد خديجة هو ورقة بن نوفل الذي رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبي ﷺ عند مفاجأته بالوحي ما أزعجها، فركبت إلى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها، إذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون بأمرهم إلى كاهن أو كنيسة، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحي إليه الشك في عبادة الأصنام، وتجنح به إلى البحث والمراجعة عسى أن يهتدي إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة. وينُسب إليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبي الصلت، ويروي كُتَّاب السيرة أنه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له، وقال لها: «إنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه».

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة، لا يعنينا أن نستقصيها، لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بني عم السيدة الأقربين، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرةً منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التي ورثتها الأسرة، منكان منهم على الجاهلية، ومن تحول عنها إلى النصرانية.

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى أنها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والإسرائيلية، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سألت غيره ممن كانت له مشهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان.

وقد رُوِيَ عنها كلامٌ قالته للنبي ﷺ حين فاجأه الوحي فعاد إليها، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي!» فكان كلامها – الذي أرادت أن تسَريَ به عنه وتثُبِّت به جَناحه آية على العلم بلباب الدين علمًا يسُتكثر على الناشئين في أديان الجاهلية، فإن الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة وسِحْرًا، ولكنها أدركت من حقيقة الدين ما لا يدركه عامة قومها، فعلمت أنه فضيلة، وأن النبي الجديد أن ينُدب له هو الرجل الذياتَّ سَمَ بالفضيلة، وقالت للنبي وقد آمنتْ أنه وحي وليس بعار من عوارض الجِنَّة: «كلا! و الله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل[1]، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصَدق الحديث، وتؤدي الأمانة».

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين، ولولا أنها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم.

وهي – على هذا – طبيعة مميزة، وليست طبيعة منساقة إلى السماع والتقليد، فمما نقل عنها أنها طلبت إلى النبي ﷺ أن يخبرها إذا جاءه جبريل، فلما أخبرها قالت له: «قم فاجلس على فخذي اليسرى» ففعل، فقالت: «هل تراه؟» قال: «نعم» قالت: «فتحول إلى فخذي اليمنى» وسألته: «هل تراه؟« قال: «نعم». فألقت خمارها[2] وسألته، فقال: «الآن لا أراه..» قالت: «يا ابن العم اثبت وأبشر، فإنه ملَك وما هو بشيطان».

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة في عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحي. ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم في العصر الحاضر، فإن البديهة لا تشتغل بالوحي الديني والنظر إلى جسد الأنثى في وقت واحد، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة، فلا موجب إذن لشك المتشككين من المتحذلقين في صحة هذه الأحاديث.

(1) الكَل: الثقيل لا خير فيه.

(2) الخمار: بكسر الخاء: النصيف وهو ما تغطي به المرأة رأسها.

وقد رُزقت هذه السيدة البارة صَباحة الوجه مع ما رُزِقَتهُ من الخُلُقُ الجميل والحسب الأثيل[1] والمال الجزيل، وصدق من قال: إن السعادة لا تتم، فإن هذه السيدة التي تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة في حياتها الزوجية، فإنها تزوجت في صباها برجل من هامات[2] مكة هو أبو هالة بن زرارة، فمات ولها منه ولد صغير سُمي باسم هند (لعله دفعًا لأذى الحسد)، وهو الذي تربى مع السيدة فاطمة وقتل في جيش الإمام في وقعة الجمل على أرجح الأقوال، ويؤُثر عنه أوفى وصف للنبي رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله.

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، واختلفوا في أي زوجيها كان الأول، ولكنه على كل حال زواج لم يكُتب له الدوام، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل الذي أصبحت بفضله عَلَمًا من أعلام النساء في التاريخ، ولا شيء أدل على رجاحة لبُها من أنَاَتِها[3] في اختيار زوجها، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر إليها فيما تختار.

أما كيف اتصل النبي ﷺ بالعمل في تجارتها، فتكاد الأقوال تتفق على أنه كان بمشورة من عمه أبي طالب، وأن أبا طالب قال له في سنة من السنين: «يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي وقد اشتد علينا الزمان، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك». وقد تردد النبي في مفاتحتها بهذا الطلب فذهب إليها أبو طالب، فأجابته على رضى وكرامة، وقالت له: «لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك، فكيف وقد سألت لقريب حبيب؟».

---

(1) الأثيل: القديم، المؤصل.

(2) هامات: الهامة: الرأس من كل شيء.

(3) أناتها: الحلم، والرفق، والتؤدة.

وقد سافر النبي إلى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كانت تربح في كل عام، وأعجبها منه أنه حين عاد من السفر وَكَل إلى غلامها ميسرة -الذي كان بصحبته - أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب، وعرضت له بذلك في حديث أقرب إلى التلميح منه إلى التصريح.

وأحجم النبي حياء، وأحجمت هي عن التصريح، ثم أوعزت إلى صديقة لها - هي نفيسة بنت منية - أن تشجعه على الخطبة، فسألته نفيسة ذات يوم: «ما يمنعك أن تتزوج؟» قال: « قلة المال». قالت: «فإن كُفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة؟» قال: «ومن تكون؟» قالت: «خديجة!» قال: «فاذهبي فاخطبيها».

وروى الزهري صاحب أقدم السير أن «رسول الله ﷺ قال لشريكه الذي كان يتَّجِرُ معه في مال خديجة: «هلم فلنتحدث عند خديجة»، وكانت تكرمهما وتتحفهما، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة[1] هي الكاهنة - فقالت له: جئت خاطباً يا محمد؟ فقال: «كلا».. فقالت: ولِمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة - وإن كانت خديجة - إلا تراك كفؤًا لها».

وأشبه الأشياء بأن يكون - بين الروايات المتعددة - أن النبي ﷺ كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم، وقال وهو يفاتح عمها في الأمر: «إن محمدًا ممن لا يوُازَن به فتى من قريش إلا رجح به شرفًا ونبلًا وفضلًا وعقلًا، وإن كان في المال قُلا فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك فقال عمها عمرو- أو ابن عمها ورقة بن نوفل في رواية أخرى- «هو الفحل الذي لا يقُدعَ أنفُه»[2] وكانت أول امرأة تزوجها رسول لله، ولم يتزوج عليها في حياتها إلى أن قارب الخمسين.

---

(1) مستنشئة: استنشأ الرجلَ: بحث عنها وتطلبها وتتبعها.

(2) يقُدعَ أنفُه: قدع الرجل صاحبه؛ منعه وكفه. والفرس كبحه.

ومن خديجة وُلد للنبي جميع أبنائه ما عدا إبراهيم ابنه من مارية القبطية، وهم: القاسم، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال.

وكان النبي ﷺ عند زواجه بالسيدة خديجة في نحو الخامسة والعشرين من عمره، أما السيدة خديجة فمن كُتاب السيرة من يقول: إنها كانت في الأربعين أو الخامسة وأربعين، ومنهم ابن عباس يقول: «إنها كانت في الثامنة والعشرين ولم تجُاوزها». وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة، لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها، ولأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد، عدا من جاء في بعض الروايات أنهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم.

وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد، وإن كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبي هالة ومن عتيق بن عائذ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام.

﴿وعَسَىٰ أنَ تكْرَهُوا شَيئْاً وَهُوَ خَيْرٌ لكُمْ﴾.

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم الذي تنزلت عليه تلك الحكمة الإلهية.

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين، خلافًا لما جرى عليه العرف بين علية القوم، وهو من تلك العِلْية في الذؤابة[1] العليا.

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة[2] الذكية، فتأيمت[3] في نحو الثلاثين.

---

(1) الذؤابة: ضفيرة الشعر المرسلة. ومن الجبل أعلاه. وفلان ذؤابة قومه، أعلاهم وأشرفهم.

(2) الوضيئة: الحسنة النظيفة.

(3) فتأيمت: المرأة بلا زوج؛ بكرًا أو ثيباً.

ولو كثر مال محمد لعله كان يبني قبل العشرين بكريمة معشر تصغره ببضع سنين، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد.

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت في غنى عمن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد.

أيهما كان خيراً؟

هذا الذي كان كما كان، أو ذاك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد؟!

لم تمض سنوات على هذه الأصرة[1] القدسية التي جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارئ لم يدخل لهما في حساب، واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلي التي جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين.

فلم يجد محمد إلى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدري ما تصنع، بل وجد إلى جانبه قلباً كريمًا وروحًا عظيمًا وسكَناً تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن إليه خشية فؤاده، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن إليها أنها حنكة السن وحنان الأمومة، ولكنه أمان الذي يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة، وما عاقبة الصبر على العُرَواء[2] التي تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كفؤ لها من بني آدم وحواء.

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلتِه أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش، ولكن هذا القليل الذي علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة في طلعتها لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين.

---

(1) الآصِرة: حبل صغير يشد به أسفل الخباء. وما عطفك علي رجل من قرابة أو معروف.

(2) العُرَواء (بضم ففتح): قرة الحُّمى، ومسها أول رعدتها.

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مُخْتَتَمَ أيامه، وظل يتَفَقدُها ويتَفَقدُ مواطن ذكراها أعوامًا بعد أعوام، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام. وإن وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصي في التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رءوم، فما من شهادة لإنسانة هي أصدق من دوام الوفاء لها في قلب إنسان عظيم.

نشأتها

إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغني عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة.

درجت في دار أبويها، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره في غير تلك الدار، وغار حراء.

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت عليها، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها، بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصورًا وراء عصور، لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التي كانت يومئذ تختلج في صدر واحد، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام.

ما هذه الصلوات والتسبيحات؟ ما هذه الهُيَنْمَة[1] بين الأبوين؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت[2] ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئاً من هذا، لأن الطفل لا يستغرب الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه، وهي لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات.

أكبر الظن أن الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئاً مما كان يحيط بها وهي تدرج في مهدها، ولكن الطفل الذي يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله، ويتخذ له قياسًا للألفة والغرابة منفردًا بين أقيسة النفوس.

وأكبر الظن أنه ينشأ منطوياً على نفسه، مستخفًا بما يخف له الناس من حوله، متطلباً من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون.

وقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد في دار أبويها، لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنِّها، وغير أخيها هند، وهو أكبر منها ومن أختها، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان.

---

(1) الهُيَنْمةُ: الصوت الخفي لا يفهم.

(2) القنوت: القيام في الصلاة على الرجلين، والإمساك عن الكلام فيها.

وأوشكت عزلة الطفلة الوحيدة أن تكبر معها، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات إخوتها الكبار إلا ما يحزن ويشغل، ماتوا صغارًا وخلفوا في نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبراً مريرًا، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطبَ من خطب، ثم لم تلبث الخطبة أن رُدت إلى أختين، لأنها خطبتا إلى وَلديْ أبي لهب، ثم أصبح أبو لهب عدوً اللأبوين يمقتهما ويمقتانه، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء.

جد من كل جانب تركن إليه، وانطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله، ملاذها في كل هذا حنان أبوين لا كالآباء: حنان جاد رصين، ونكاد نقول: بل حنان صابر حزين، يشملها به الأب الذي مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذي تأهب له زمناً ونهض به زمناً، ولا يزال يعاني من حمله ما تنوء به الجبال، وتشملها به الأم التي جاوزت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لَعَمْر الحق صابر حزين.

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين: حنان أحرى به أن يعلم الوقار، ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق.

وتعلمت الزهراء في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة: آيات من القرآن، وعادات يأباها مِن حولهم العابدون وغير العابدين.

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة الجزيرة العربية، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد، وأنها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها أحد في أكثر أيامها.

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها، فلم تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها، ولم تتحدث قط في غير ما تسُأل عنه أو يلُجئها إليه حادث لا ملجأ منه، فلا فضول هنالك في عمل ولا في مقال.

***

وسواء صح ما جاء في الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة، فالصحيح الذي لا مراجعة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعته من علي، وأنها صلت به ووعت أحكام فرائضه، وأنها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المُعْرِقات.

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف[1]: نشأة وقار واكتفاء، وعلمت مع السنين أنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذي لا يدُانىَ، وشبَّتْ بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء.

سكنت هذه النفس القوية جثماناً يضيق بقوتها، وقلما رُزِقَ الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف، فإنهما مزيج مُتعِب للنفس والجسم معًا، لا قوام له بغير راحة واحدة: هي راحة الإيمان، وهذا هو التوفيق الأكبر في نشأة الزهراء، فإنها نشأت في مهد الإيمان، إذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها.

(1) اعتكاف: اعتكف في المسجد: أقام به، وحبس نفسه فيه.

زواجها

قال الزرقاني في شرح المواهب اللدُنِّيَّة: «إن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبدالملك وعنده الكلبي، فقال هشام لعبد لله: يا أبا محمد! كم بلغت فاطمة من السن؟ قال: ثلاثين سنة. فقال الكلبي: خمسًا وثلاثين. فقال هشام: اسمع ما يقول، وقد عُنِيَ بهذا الشأن. فقال: يا أمير المؤمنين: سلني عن أمي وسل الكلبي عن أمه».

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة أنها عليها السلام قد تزوجت وهي في نحو الثامنة عشرة.

ومن جملة الأخبار يتضح أن النبي ﷺ كان يبقيها لعليّ رضي الله عنه، فقد خطبها أبو بكر وعمر، فردهما وقال لكل منهما: أنتظر بها القضاء، أو قال: إنها صغيرة كما جاء في سنن النسائي.

وفي أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر: «أنت لها يا علي!» فقال علي: «ما لي من شيء إلا درعي أرهنها»، فزوجَه رسول الله فاطمة، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت، ثم دخل عليها رسول الله فقال: «مالك تبكين يا فاطمة! فو الله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلمًا».

وفي رواية أن عليًّا لما سأله النبي: «هل عندك من شيء؟» قال: «كلا». فقال له: «وأين درعك الحطمية؟» أي التي تحطم السيوف، وكان النبي قد أهداه إياها، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده، فاجتمع له منها أربعمائة درهم.

جاء في أنساب الأشراف للبلاذري: «فباع بعيراً له ومتاعًا فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهمًا، ويقال: أربعمائة درهم، فأمره أن يجعل ثلثها في الطيب وثلثها في المتاع ففعل».

ثم استطرد صاحب الأنساب إلى رواية أخرى، يرتفع سندها إلى عليٍّ نفسه قال: سمعت عليًّا عليه السلام يقول: «أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته، فقلت:

والله ما لي شيء، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه». فقال: «وهل عندك من شيء؟» قلت: لا.. قال: «فأين درعك يوم كذا؟ فقلت: هي عندي! قال: فأعطها إياها».

وفي طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة: «هي لك يا علي! لستُ بدجال» يعني لست بكذاب. وذلك أنه كان وعد عليًّا بها قبل أن يخطبها.

ويروى عن النبي أنه قال لفاطمة: «ما أليت[1] أن أزوجك خير أهلي».

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم «إناء يغسل فيه» وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان.

وعن أنس بن مالك أن النبي قال له: انطلق وادعُ لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار، قال: فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيِّه محمد ﷺ. إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لا حقا ولا أمرًا مفترضًا وحكمًا عادلاً وخيراً جامعًا، أوشج[2] بها الأرحام، وألزمها الأنام. فقال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرِ﴾، وأمْر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثُبت وعنده أم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من عليٍّ، وأشهدكم أني زوجت فاطمة من عليٍّ، على أربعمائة مثقال فضة إن رضيَ بذلك على السُنَّة القائمة والفريضة الواجبة، فجمع شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

قال أنس: «وكان عليٌّ عليه السلام غائباً في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا، فقال: انتبهوا. فبينما نحن كذلك إذ أقبل عليٌّ فتبسم

(1) أليت: قصرت وأبطأت.

(2) أوشج: أوشج لله بين القوم: ألف وخلط.

إليه ﷺ وقال: «يا عليُّ ! إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة، وإني زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة»، فقال عليٌّ: رضيتُ يا رسول لله! ثم إن عليًّا خر ساجدًا شكرًا لله، فلما رفع رأسه قال الرسول ﷺ: «بارك الله لكما وعليكما، وأسعد جدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب».

قال أنس: «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب»

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت في زواجها على عادة النبي عليه السلام في تزويج كل بنت من بناته كما جاء في مسند ابن حنبل، فيقول لها: فلان يذكرك، فإن سكتت أمضى الزواج، وإن نقرت الستر علم أنها تأباه، وفي زواج الزهراء قال لها: يا فاطمة! إن عليًّا يذكرك. فسكتت، وفي روايات أخرى أنه وجدها باكية، فذاك حيث قال رسول لله: «ما لك تبكين تبكين يا فاطمة! فو الله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا، وأفضلهم حلمًا، وأولهم سلمًا».

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الزواج، ولكنهم قالوا: إنه كان بعد الهجرة، وبعد غزوة بدر. وأرجح الأقوال كما قدمنا أنها كانت في نحو الثامنة عشرة، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات.

***

توخينا في اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين، فما من خبر من هذه الأخبار وصل إلينا في كتب السيرة على رواية واحدة، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرضى والإنكار، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال.

ونحن نعني بالأوسط الأمثال أن يكون الترجيح قائمًا على المقابلة والموازنة والرجوع إلى حوادث الزمن وعادات أهله، وإلى الأحرى أن يصدر ممن أسند إليهم

القول أو نسُب إليهم العمل؛ فإن الأخبار إذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه.

فمن المعقول مثلًا أن يؤثر النبي عليًّا بفاطمة وهما ربيبان في بيئة واحدة، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من عليٍّ على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر لزوجات الشيخين، ومن المعقول أن يتردد علي في خطبتها لفقره. ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لا بد له من عمله، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج إلى ما بعد الهجرة؛ لأن حياة المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة لم تكن حياة أمن ولا استقرار، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم إلى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة، فمن كان متزوجًا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج، ومن لم يكن فليس أخلق به من إرجاء الزواج إلى حين.

ذلك كله هو المعقول المألوف، وهو الأوسط الأمثل إذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح.

إلا أن التاريخ يكتب للاعتبار، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر إلى الحوادث والناس، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز.

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر في كتابة التاريخ: كتابته في الأزمنة الغابرة، وكتابته في الزمن الحديث.

فأهم العبر التي تسُتخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد ذوو الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى، فلا يرتبوا حكمًا قاطعًا في مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات، فما كان من الأخبار مُجْمَعًا عليه أو مقارباً للإجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات، أو فرضًا تقابله فروض، أو رقمًا ويومًا تقابله أرقام وأيام بل أعوام، فليس من القصد أن يعطى

فوق معياره من الجزم واليقين، وبخاصة حين ينبني عليه اتهام أو قضاء لا يقوم في مسائل كل يوم بغير بينة تنفي كل شبهة وتبطل كل محال.

أما العبرة في تاريخنا العصري فمرجعها إلى كتابة طائفة من العصريين يزعمون أنهم يطبقون روح العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى, لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف.

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير، فمن هؤلاء من يطالع في الكتب الدينية التي يصدقها، فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورًا لا شك في أنها من العيوب فلا يحسبها عيوباً، ولا يتأفف منها، بل يعْنِت فِكْرَهُ ويعْنِتهُا تخريجًا وتعويجًا حتى يقبلها، ويفرض قبولها على الناس.

فإذا طالع كتباً عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن إلى عيوب، أو بالتنقيب في كل مكان عما يعاب إن لم يجد ما يعيبه في ظاهر السطور والحروف.

وما من شيء يمسخ الدين ويمسخ العلم معًا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم، فإنِّ الدين لا يعلم الإنسان شيئاً إن لم يعلمه حب الصدق واجتناب التَّمحل[1] والافتراء، وإن العلم شر من الجهل إن كان يسوم الإنسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع، فليس هذا جهلًا يزول بكشف الحقيقة، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي مكشوفة لديه، فهو شر من الجهل بلا مراء.

وفي تاريخ الزهراء مثال للعبرة التي تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء» الذين هم شر من الجهلاء، وأحدهم قد خصص كتاباً لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن «يطبق» ذلك العلم العصري المقلوب، فإذا هو منقلب عليه.

(1) التَّمَحل: تمحل الشيء: طلبه بحيلة وتكلف. ومنه تمحل له غدرًا.

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين- الذين عاشوا زمناً في الشرق - كتاباً عن الزهراء ليُرضِيَ فيه ذلك «العلم العصري» المقلوب، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب، فإذا العيب هو في الإسفاف، وكم في الإسفاف من عيوب، بل من ذنوب!

ومن تفاهاته وسفاسفه[1] أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة, لأنها كانت محرومة من الجمال، ولم تصدق أن أحدًا يخطبها بعد تلك السن، ثم يقول: إنها لما عرض عليها النبي الزواج من عليٍّ سكتت هنيهة ولكنها لم تسكت خجلًا بل دهشة من أن يخطبها خاطب، ثم تكلمت فشكت، لأنها تزوج من رجل فقير.

لو كان السند الذي استند إليه هذا « العالم» واضحًا ملزمًا لقلنا: إنها أمانة العلم، ولا حيلة للعالم في الأمانة العلمية.

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها، وتقابله أسْنادٌ أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه.

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين، وأن أخواتها تزوجن من ذوي غنى وجاه، كأبي العاص بن الربيع وعثمان بن عفان.

وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال وأن تحُرمه إحدى البنات!

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية في إبّانها، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن، والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين، وهؤلاء المسلمون قلة، منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج، فلا حاجة بالمؤلف إلى البحث الطويل ليهتدي إلى السبب الذي يؤخر زواج بنت النبي إلى الثامنة عشرة، ولو كانت أجمل الجميلات.

---

(1) سفاسفه: السفساف: الرديء من كل شيء، وما دق من التراب.

وفي وسعه كذلك أن يتصور أن النبي ﷺ يخص بها ابن عمه، وينتظر بها يوم البتَ حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية، فلا هم في ذلك الوقت ذووه ولا هم بعُداء عنه.

كل ذلك قريب كان في وسع «العالم المحقق» أن يراه تحت عينيه، قبل أن يذهب إلى العلة التي اعتلها لتأخير الزواج، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت إليها، لأنها لا تعيب، والسبب الخفي البعيد تشوبه غضاضة[1]، فهو الجدير إذن بالالتفات.

وكأنما كان «العالم المحقق» في حاجة إلى جهالة فوق جهالته، فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة أنه شكاية من فقر علي بن أبي طالب،

ويسند هذا الفهم إلى رواية البلاذري في أنساب الأشراف، بعد زعمه أن فاطمة أبْلغت زواجها بعلي فسكتت من الدهشة لا من الخجل، وإنما دهشت، لأنها لم تكد تصدق أن أحدًا يخطبها بعد أن قاربت العشرين.

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمي أن تكون الفتاة يائسة من الزواج، مدهوشة من خطبة الخطيب، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بني عمومتها الفقراء، وليست هي يومئذ من الأغنياء؟

كلا! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمي، ولكنه تمحلٌ للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلي فهو إذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف.

والبلاذري – بعد – لم يذكر شيئاً من هذا، وليس في كلامه عن مناقب علي أو فاطمة شيء من قبيل الجواب الذي ينسب إلى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو: «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبي إسحاق عن حبشي بن جنادة قال: لما زوج رسول

(1) غضاضة: النضارة من الشباب والطراءة. والمذلة والانكسار، تقول: هو شاب بين الغضاضة، وليس عليك في هذا الأمر غضاضة.

الله ﷺ فاطمة أرعدت، فقال: «اسكتي! فقد زوجتك سيدًا في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين».»

***

هذا ما وجدناه في النسخة المنقولة من مخطوطة الأستانة، ومن المطبوعة في أوربا، فتفسير «الرعدة» بذلك المعنى إنما هو من إبداع المؤلف الحصيف!

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه، نمُر به لعبرته النافعة في وزن التواريخ العصرية المزعومة، ولا ننبه إليه لقول قائل: إن السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال. فإنه لو صح لما كان فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفتها أكرم البنوات، ولكننا ننبه إليه، لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء، فيفتري على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم، ويعافه أدب الدين.

ونعود إلى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول، فنقول: إننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات في آل محمد وآل علي، فلم تجد في عصر النبوة غير واحد على قبيل الخبر الذي قيل فيه: إن السيدة فاطمة أشارت إلى فقر علي حين بلُغت خطبته لها، وهو تزوج السيدة أم كلثوم.

وبين الخبرين – مع هذا– بوَن بعيد.

جاء في أسْد الغابة عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب أنه قال: «لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا: «إنك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن، وإنك والله إن أمكنت عليًّا من رمتِكِ لينكحك بعض أيتامه، وإن أردت أن تصيبي بنفسك مالاً عظيمًا لتصيبنه»، فو الله ما قاما حتى طلع علي يتكئ على عصاه، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال: قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة وأثَرَتكُم على سائر ولدي لمكانكم من رسول الله ﷺ، فقالوا: صدقت رحمك لله، فجزاك الله عنا خيراً. فقال: أيْ بنُيَة! إن الله عز وجل

قد جعل أمرك بيدك، فأنا أحب أن تجعليه بيدي. فقالت: أي أبة! إني امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء، وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا، وأنا أريد أن أنظر في أمر نفسي. فقال: لا والله يا بنية! ما هذا من رأيك. ما هو إلا رأي هذين! ثم قام فقال: و الله لا أكلم رجلًا منهما أو تفعلين، فأخذا بثيابه فقالا: اجلس يا أبة، فوالله ما على هجرتك من صبر. اجعلي أمرك بيده. فقالت: قد فعلتُ! قال: فإني قد زوجتك من عون بن جعفر، وإنه لغلام، وبعث لها بأربعة آلاف درهم».

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذي يختاره أبوهم- تنتهي بطاعة الحب للأب الذي لا يصبر على غضبه، وتدل في سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الإخوة والآباء من عطف وتوقير.. وليس فيها من الشبهَ برواية البلاذري غير إشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول[1].

فإذا كان للخبر الذي جاء في أنساب الأشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبي ﷺ قد وجد الزهراء باكية وليس في ذلك من غرابة، لأننا لا نتخيل فتاة في مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره في نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها، وقد فارقتها أمها وهي صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإلطافها لها في رخائها وعسرها، ثم يكون يوم الفصال في غربة من البيت الذي لزمتها فيه ومن البلد الذي يحتويه، فإن جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكي حين تحوم بنفسها تلك الذكريات، وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها في كنف أبيها ومعيشتها في غير كنفه، فموضوع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين.

(1) البتول: المنقطعة عن الزواج.

ومثل النبي الذي كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم، وأنه كان أباً مكلوم الفؤاد، لن يفوته ذلك الخاطر في ذلك اليوم، ولن يسكت عنه إلا عامدًا عالمًا بما يلعجه[1] في النفس من الحزن والشجن، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله ﷺ: «مالك تبكين يا فاطمة! فو الله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا، وأفضلهم حلمًا، وأولهم سلماً»..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التي أطالت بقاء فاطمة فيبيت أبيها، فإنه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها: إني أريد أن أحولك إليَّ. فقالت: فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عني. قال رسول لله: قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه. فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي فقال: يا رسول لله! إنه بلغني أنك تحول فاطمة إليك، وهذه منازلي، وهي أسقب بيوت بني النجار بك، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله، و الله يا رسول الله لَلْمالُ الذي تأخذ مني أحب إلي من الذي تدَعَ. فقال رسول: الله صدقتَ. بارك الله عليك! فحولها رسول الله إلى بيت حارثة.

جاء في كتاب السمهودي عن أخبار دار المصطفى: «إن بيت فاطمة رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي ﷺ خوخة[2].. وكانت فيه كُوةٌ إلى بيت عائشة رضي الله عنها، فكان رسول الله ﷺ إذا قام اطلع من الْكوةِ إلى فاطمة فعلم خبرهم، وإن فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي: إن ابنيَ أمسيا عليلين، فلو نظرت لنا أدمًا نستصبح به، فخرج علي إلى السوق فاشترى لهم أدمًا وجاء به إلى فاطمة، فاستصبحت. فأبصرت عائشة المصباح عندهم في جوف الليل – وذكر كلامًا وقع بينهما – فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي ﷺ أن يسد الْكوةَ فَسَدهَا».

(1) يلعجه: لعج فلان البدن بالضرب: آلمه وأحرق جلده. وألحب فؤاده: أحرقه.

(2) خوخة: باب صغير كالنافذة الكبيرة يكون بين بيتين.

إلى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده: «إنه ﷺ كان يأتي باب علي وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بِعُضَادَتَيْ[1] الباب ويقول: السلام عليكم أهل البيت، ويقول: الصلاة! ثلاث مرات، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. وكان النبي ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يثُني بفاطمة، ثم يأتي بيوت نسائه.

وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال: «كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة مَسَكَتَيْن[2] من ورق[3] «بكسر الراء».

وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها وقف أصحابه على الباب لا يدرون أيبقون أم ينصرفون لطول مكثه عندها، فخرج رسول الله ﷺ وقد عُرِف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر. فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به إلى رسول الله ﷺ، وقالت للرسول: قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله فلما أتاه قال: قد فعلت، فداها أبوها، ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء».

وانتظمت الحياة في السكن الجديد الذي أوى إلى ظل النبي على مثال من حياة النبي في بيته: عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رَب البيت وَرَبَّتهُ، إذ كان رزق علي من وظيفة الجندي، ووظيفته من فيء الجهاد، وقد كان قليلًا في حياة النبي، وهو مقصور على الجزيرة

(1) عضادتي: العضادة بالكسر من الباب جانبه، وهما عضادتان عن يمين الداخل منه وشماله.
(2) مسكتين: المسكة: السوار والخلخال.
(3) وَرِق: الفضة، والدراهم المضروبة.

العربية، فكان نصيب علي منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم، وكلما رزق وليدًا جاءته حصته على قدر شأنه كشأن كل أب من المسلمين.

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية، وقد رزق الأبوان الفقيران نصيباً صالحًا من البنين والبنات: الحسن والحسين ومحسن، وزينب وأم كلثوم.

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذي كان يواليهم به جميعًا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام في مُحْتَدَمِ الدعوة والجهاد، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخًا محفوظًا في الصدور والأوراق.

فلما ولد الحسن سماه والداه حرباً، فجاء رسول الله فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قالوا: حرب! قال: بل هو حسن، وهكذا عند مولد الحسين، وعند مولد المحسن، وقد مات وهو صغير.

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان، ولم يلبث أن حفظها المشرقان.. «حُزقةٌ[1]..حُزُقةْ.. ترَقة.. ترق عَيْنَ بقَةْ».

وربما شوهد النبي ﷺ ساجدًا وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه، فيتأنى في صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه، وفي إحدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد: المطيَّة مطيتك!

بل ربما كان على المنبر، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران، فيسبقه حنانه إليهما وينزل من المنبر ليحملهما، وهو يقو: «صدق الله العظيم! إنما أموالكم وأولادكم فتنة!».

وكان إذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لها: «ما بكاء هذا الطفل؟.. ألا تعلمين أن بكاءه يؤذيني؟».

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان. ففي إحدى هذه الليالي سمع الحسن يستسقي فقام صلوات الله عليه

(1) الحُزق: القصير.

إلى قربة فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يعبعبه، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن، قالت فاطمة: كأنه أحب إليك؟ قال: إنما استسقى أولاً!

وقد يلفهم جميعًا في برد واحد فيقول لهم: «أنا وأنتم يوم القيامة في مكان واحد».

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعًا من أبوة الأب الصغير، فكانت فاطمة تقول إذا رقصَتْ طفلها:

وا بـــــأبي شـــــبه النبـــــي لســـــت شـــــبيهً بعـــــلي

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين الذين يتنافسون على حب لا يمنع بعضهم بعضًا أن يتنافسوا عليه.

***

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة، سعيدة بالعطف في قلوب كبار، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوي مثقال ذرة من هباء.

ولم تَخَلُ هذه الحياة، وما خلت حياة آدمي قط، من ساعات خلاف وساعات شكاية، فربما شكت فاطمة وربما شكا علي، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة، وما هي بشدة، فما كان رجل مثل علي ليعنف بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول لله، إنما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وإباؤها أن تهمل حيث كانت، وإنما هو الحنان الذي تعودته من أبيها فلا تستريح إلى ما دونه، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره في قلب إنسان.

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما في كل خلاف، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل إلى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء. والصحابة الذين يتتبعون في وجه النبي كل خالجة من خوالج نفسه، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه، لأنه لا يملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهمومًا وخرج منه منطلق الأسارير، فيسألونه فيجيب: «وَلِمَ لا وقد أصلحت بين أحب الناس إليَّ !».

ومرة من هذه المرات، بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين، ونمى إلى فاطمة أن عليًّا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة، فذهبت إلى أبيها باكية تقول: «يزعمون أنك لا تغضب لبناتك؟».

كلمة تعلم وقعها في نفس أبيها الذي ما زعمت هي قط أنه يرضى بما يغضبها، وقد عرف أبوها ما تعني، لأن بني هشام بن المغيرة استأذنوه في تزويج بنتهم من زوج فاطمة، فصعد المنبر والغضب بادٍ عليه، وقال على ملأ من الحاضرين: «ألا إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينْكحوا ابنتهم عليًّا، ألا وإني لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إنما فاطمة بضعة مني يرُيبني ما رابها».

***

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء في رواياتها المختلفة، ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبي وحفظت عنه، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين، وأهلها هم من هم في المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبي طالب من ذوي قرابتها، أو لعلها غضبة من غضبات علي على أنفة من أَنَفَت فاطمة، أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأباها، وإنْ أباها العرف في حالة المودة والصفاء.

ولا نحسب أن حياة الزهراء والإمام تعرضت لخلاف غير الذي أشرنا إليه، فإن كتب السيرة تستقصي كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية النبي. وهي وأبناؤها كل ذرية النبي الذين عاشوا بعده، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبي صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر، وكان علي قد عاهد نفسه لا يغضبنها وقد غابت عنها عين أبيها، فلم يغضبها بعد ذلك حتى في أمر الخلافة، وهو يومئذ أجل الأمور.

بلاغتها

قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب «بلاغات النساء»:....لما أجمع أبو بكر رضي الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ فدك، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها، وأقبلت في لمة من حفدتها تطأ ذيولها، ما تخرم من مشية رسول الله ﷺ شيئاً حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فنيطت دونها ملاءة ثم أنَّت أنّةً أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رَسُول منْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتمْ حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رحِيمٌ﴾، فإن تعْزُوه تجدوه أبِي دُونَ نسائكم، وأخَا ابنِ عمي دُونَ رجالكم، فَبلَغ النذارة صَادِعًا بالرسالة، مائلًا عن مدرجة المشركين، ضارباً لثجنهم[1] آخذًا بكظمهم، يهشم الأصنام، وينكت الهام، حتى هُزم الجمع وولوا الدبر، وتفرى الليل عن صُبحِه، وأسفر الحق عن مَحْضِه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وكنتم على شفا حفرة من النار، مُذقةَ الشارب، وَنهزة الطامع، وَقَبسْةَ العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطريق[2] وتقتاتون القد، أذلة خاشعين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللتيا والتي، وبعد ما مُني بِبهم الرجال وذوبان العرب ومَردةِ أهل الكتاب، كلما حشوا نارًا للحرب أطفأها، ونجمَ قَرن للضلال، وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهَواتِها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهيبها بسيفه، مكدودًا في ذات لله، قريباً من رسول لله، سيدًا في أولياء لله، وأنتم في بلُهنيةَ وادِعُون آمنون، حتى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهرت خلة النفاق، وسَمُل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل

(1) الثجن:(بسكون الجيم وتحريكها) الطريق الوعر (يمانية).

(2) الطريق: الماء المطروق.

الآفلين، وهدر فَنيق[1] المبطلين، فخطر في عَرصاتِكم، وأطلع الشيطان رأسه من مَغرزه، صارخًا بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، فاستنهضكم فوجدكم خفافًا، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتموها غير شِربكم، هذا والعهد قريب، والكَلْم رحيب، والجرح لما يندمل».

***

إلى أن قالت: «وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا ! أفحكم الجاهلية تبغون؟! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ للهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟! أيها المسلمة المهاجرة، أأبتز إرث أبي؟ أفي الكتاب أن ترِثَ أباك ولا أرِثُ أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، فَدُونكَما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فَنِعْمَ الْحَكَم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، و ﴿لكُل نبَإٍ مسْتقر وَسَوف تعْلَمُونَ﴾.

ثم انحرفت إلى قبر النبي ﷺ وهي تقول:

قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثه لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

هذه رواية لخطاب الزهراء، وفي الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة في لفظها ومعناها للرواية السابقة، وقبل إيراد الروايتين قال أبو الفضل: ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام، وقت له: إن هؤلاء- يشير إلى قوم في زمانه يغضون من قدر آل البيت - يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء، فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم، ويعلمونه أبناءهم، وقد حدثنيه أبي عن جدي يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية، ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبي العيناء، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه. ثم قال أبو الحسن:

(1) الفَنِيق: الجمل القوي.

وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة، يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت؟»

***

ونسبت إلى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه، وأنها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت: «يا أنس!.. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا[1] على رسول الله التراب؟» ثم بكت ورثته قائلة:

آغـــير أفـــاق الســـماء كـــورت[2] شـــمس النهـــار وأظلـــم العصرـــان
فـــالأرض مـــن بعـــد النبـــي كئيبـــة أســـفاً عليـــه كثـــيرة الرجفـــان
فليبكـــه شرق الـــبلاد وغربهـــا ولتبكـــه مُضَرٌـــ وكُـــل يَـــمَان
وَلْيَبْكِـــه الطـــود المعظـــم جـــوده والبيـــت ذو الأســـتار والأركـــان
يـــا خـــاتم الرســـل المبـــارك ضـــوءه صـــلي عليـــك منـــزِّل القـــرآن

ووقفت علي قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها علي عينيها وبكت وأنشأت تقول:

مـــاذا عـــلى مـــن شـــم تربـــة أحمـــد أن لايشـــم مـــدي الزمـــان غواليـــا[3]
صـــبت عـــليَّ مصـــائب لـــو أنهـــا صـــبت عـــلى الأيـــام صران لياليـــاً

وقالت علي قبره أيضاً:

إنـــا فقـــدناك فقـــد الأرض وابلهـــا وغـــاب مـــذ غبـــت عنـــا الـــوحى والكتـــب
فليـــت قبلـــك كـــان المـــوت صـــادفن لمـــا نعيـــت وحالـــت دونـــك الكثـــب[4]

(1) تحثوا: حثا التراب عليه وفي وجهه قبضه ورماه.
(2) كورت: كور فلاناً طعنه فألقاه مجتمعًا. المتاع جمعه وأبقاه بعضه فوق بعض وشده.
(3) غواليا: الغوالي جمع غالية، وهي طيب مركب من أخلاط تغلى على النار.
(4) الكثب: جمع كثيب، وهو التل من الرمل.

ومضى آنفًا أنها تمثَّلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارئ إقواء، لأن الباء مضمومة في رَوي البيت الأول مكسورة في رَوِي البيت الثاني، ولعل شطرًا منهما حل محل شطر في نقل الرواية.

***

نقول: إن الخلاف في أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير، ولا نحب أن نخوض فيه، لأنه خلاف على غير طائل، وقد يحسمه أن نذكر في هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد، فإنه أجدى من اللهو في جدال لا سند له، يسلمه جميع المخالفين.

فيقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر، وإن قائله يعده في نفسه قبل إلقائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة في التحضير.

ويقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه، فإن حفظه فإنما يحفظه منقولاً أو مكتوباً بعد حفظه.

فإذا قل الخلاف في هذا فعلام إذن يكثر الخلاف؟

أتراه يكثر حين يقال: إن السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها في خَلَدها؟

إن هذا النصيب من البلاغة إذا استكْثِر على السيدة فاطمة فما من أحد في عصرها لا يستكثر عليه.

لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء، وانتقلت إلى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من إمام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه، وسمعت القرآن يرتل في

الصلوات وفي سائر الأوقات، وتحدث الناس في زمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق في أمرها عن الهوى.

***

جاء في الجزء الثالث من العقد الفريد عن «الرياشي عن عثمان بن عمرو عن إسرائيل بن ميسرة بن حبيب، عن المنهال بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «ما رأيت أحدًا من خلق الله أشبه حديثاً وكلامًا برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده وقبلتها، فدخلت عليه في مرضه الذي توفى فيه، فأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت، فقلت: كنت أحسب لهذه المرأة فضلًا على النساء فإذا هي واحدة منهن، بينما هي تبكي إذا هي تضحك. فلما توفى رسول الله ﷺ سألتها فقالت»: أسر إليَّ فأخبرني أنه ميت فبكيت، ثم أسر إلي إني أول أهل بيته لحوقًا به فضحكت».

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعًا، ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة أن امرأة في فضلها واعتزازها بنفسها كان تترى للزهراء فضلًا على سائر النساء في حلمها ورصانتها.. ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة إذا نسب إليها؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته في حديثه؟ ولماذا تُستعظم على زوجة الإمام الذي كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته، وهي مضرب الأمثال؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح؟

***

أما نسبة الشعر إلى الزهراء فالخَطْب فيه أهون من ذلك، فهو لا يسلكها في الشاعرات إن ثبت، ولا يضيرها إن لم يثبت، ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه أقرب منا إلى جانب القبول، وليس بعيدًا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير في فمه أبياتاً يحكيبها

حزنه وبثه، فإن النظم هنا أقرب إلى لغة العاطفة وعادة النحيب، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن في مقام الموت غني عن نظم الأبيات أو التمثل بها في مقام العبرة والرثاء.

في الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذي عهدناه عاكفة على بيتها، تزيدها عكوفًا عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التي تنفرد بها ولا تجد معيناً عليها في كثير من الأيام غير زوجها.

ثم توفي النبي صلوات الله عليه، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها في معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها في أيامنا، ولم يكن لها مُنصرف عن ذلك المعترك في تلك الآونة، لأن الخلاف فيها كان خلافًا على ميراث أبيها، ميراث الخلافة، وميراث التركة القليلة التي أعقبها.

ومسألة الخلافة في يوم وفاة النبي إحدى المسائل التي طال فيها الجدل، ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأي متفق عليه، وذاك أن الخطر الأكبر في ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة: سقيفة بني ساعدة، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة، تطلب الإمارة، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبي بكر للخلافة، فأعرضوا عنه ونبذوه، ثم خطر لِذِي رأي منهم أن يقسمها شطرين: أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه في قومه نافرًا من البيعة لأبي بكر بعد انعقادها وهو يأبى إلا أن «يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس، فإنه لهم دون الناس». ثم أصر على إبائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم: «أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل وأخضب سنان رمحي»، وناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول: «إني ضاربكم بسيفي ما ملكَتهْ يدي، مقاتلكم بولدي وأهل بيتي ومن أطاعني من قومي.. وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعُرض على ربي». ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاضره ولا في مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره[1]، وهو خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يحضأ[2] نارها بين علي والعباس، وبين بني

(1) قطع دابره: الدابر آخر كل شيء، يقال: قطع لله دابرهم؛ أي آخر ما تبقى منهم.
(2) يحضأ: حضأ النار أرثها وأشعلها.

هاشم وسائر بطون قريش، يعِدُ قومًا بنصرة بني أمية ونصرة قريش من ورائها، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد، وما كان من همه أن ينصف بني هاشم ولا أن يؤيد الأنصار، وإنما أراد الوقيعة التي يخذلهم بها جميعًا ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية.

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا خطر تلك الفتنة من سقيفة بني ساعدة، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر، ولم يطلبها، بل كان مشتغلًا بدفن الرسول. ودُعي إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيمَ يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته، حتى هم عمر بمبايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع في السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين، وقبل أن تنجح المسعاة من أبي سفيان في خفائها، وقد كاد أن يعلنها.

***

وكان علي في تلك الساعة العصيبة إلى جوار الجثمان الطاهر المسجى في حجرته، فدخل عليه أبو سفيان قائلًا: «يا أبا الحسن! هذا محمد قد مضى إلى ربه، وهذا تراثه لم يخرج عنكم، فابسط يدك أبايعك»!

ويقول عمه العباس: «يا ابن أخي، هذا شيخ قريش قد أقبل، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معي. فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشي، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب».

فيجيبه علي: «لا و الله يا عم!.. إني لأكره أن أبايع من وراء رتاج».

ولقد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاة من بني هاشم وشيخ الدهاة من بني أمية، فما للخلافة معدى عنه إن كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين، وماَّ للبيعة هناك جدوى إن تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين.

ولقد تمت البيعة على الوجه الذي عرفه التاريخ، فإن يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين في فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبي سفيان، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعًا لأنفسهم، وما قصروا بعد يوم البيعة في نصرة دينهم، وما كان في وسع أحد أن يبلي أجمل من بلائهم في دفع الغائلة عن الإسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم، ولا أن يفتح للإسلام في العراق والشام وفارس ومصر فتحًا أعظم وأقرب مما فتحوه.

***

وآمن عليٌّ بحقه في الخلافة، ولكنه أراده حقا يطلبه الناس ولا يسبقهم إلى طلبه، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأي والسيف ويصدق العون لأبي بكر وعمر كأنه في عون رسول الله وهو بقيد الحياة.

وقد اختلف الصديق والفاروق والإمام يومًا أو أيامًا بعد وفاة النبي ﷺ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعًا أنهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم، ولم يقفوا دون الغاية في خدمة دينهم، ولم يحَيَ أحد منهم حياةً تريب في صدقه وصدق طويته وحسن بلائه، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه.

وكانت السيدة فاطمة ترى حق علي في الخلافة، أو ترى أن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته، وأن بلاء علي في الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة. وكان هذا رأي طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجري الأمر على غير هذا المجرى، فاجتمعوا عندها واجتمعوا في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم، أيبايعون أم يتخلفون، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمي أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقض البيعة.. وبعد مساجلات بينهم وبين أبيَّ بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التي بيَّتها أبو سفيان، فقد عاد

أبو سفيان يعرض مبايعته على علي ويتحفز للوقيعة. فصده علي وعرض له بذكر الغششة والمخادعين، ثم قال له: «إنك تريد أمرًا لسنا من أصحابه»، فلما يئس من هذا الباب طرق باباً آخر لعله يلج منه إلى مأربه، وذهب إلى العباس يقول له: «امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم» ثم يقول: «إنك والله لأحق بميراث ابن أخيك»، فيرده العباس كما رده علي، ويكاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوي بانطواء الكلام في مسألة الخلافة، لولا مسألة «فدك» أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم، مخافة السخط من بنت رسول الله.

***

وخلاصة الحديث في أمر »فدك» أنها قرية كان النبي يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة إلى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر! فقال أبو بكر: «إن رسول الله ﷺ كان يقول: إننا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.. وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كان عليها ويقال: إن الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه -زكريا- : «يرثني ويرث من آل يعقوب» وقوله تعالى: «وورث سليمان داود».. وإن أبا بكر قال لها: «يا بنت رسول !لله أنت عين الحجة ومنطق الرسالة، لا يدلي بجوابك، ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك، هو الذي أخبرني بما تفقدت، وأنبأني بما أخذت وتركت».

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة إن أبا بكر قال: يا ابنة رسول الله! والله ما ورث أبوك دينارًا ولا درهمًا وإنه قال: إن الأنبياء لا يوَروثُون. فقالت: إن فدك وهبها لي رسول الله ﷺ، قال: فمن يشهد بذلك؟ فجاء علي بن أبي طالب فشهد، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضًا، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله ﷺ كان يقسمها. فقال أبو بكر: صدقت يا أبنة رسول لله، وصدق علي،

وصدقت أم أيمن، وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أن مالك لأبيك، كان رسول الله يأخذ من فدك قُوتكَم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل لله، فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما يصنع بها أبي ! قال: فَلَكِ على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك، قالت: الله لتفعلن؟ قال الله لأفعلن. قالت: اللّهم اشهد - وكان أبوبكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي، وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان علي كذلك.

***

وفي خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبي بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها».. فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما، فأتيا عليًّا فكلماه، فأدخلهما. فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام، فتكلم أبو بكر فقال: «يا حبيبة رسول الله، و الله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله؟ ألا إني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركناه فهو صدقة.» فقالت: «أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتعملان به؟» قالا: نعم «فقالت»: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضاء فاطمة من رضائي وسخطها من سخطي؟» قالا: «نعم سمعناه من رسول لله».. قالت: «فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه». فقال أبو بكر: «أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة»، ثم انتحب وبكي حتى كادت نفسه تزهق.. ثم خرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم: «بيت كل رجل منكم معانقًا خليلته مسرورًا بأهله وتركتموني وما أنا فيه؟ لا حاجة لي في بيعتكم.. أقيلوني بيعتي».

***

والحديث في مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التي لا تنتهي إلى مقطع للقول متفق عليه.. غير أن الصدق فيه لا مراء أن الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق، وأن الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذي تقوم البينة عليه، ومن أسخف ما قيل: إنه إنما منعها فدك مخافة أن ينفق عليٌّ من غلتها على الدعوة إليه، فقد ولى الخلافة أبوبكر وعمر وعثمان وعلي ولم يسمع أن أحدًا بايعهم لمال أخذه منهم، ولم يرِدْ ذكر شيء من هذا في إشاعة ولا في خبر يقين، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم في عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه في مسألة فدك، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضي الصحابة برضاها، وما أخذ من فدك شيئاً لنفسه فيما ادعاه عليه مُدعٍ، وإنما هو الحرج في ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين، رضوان الله عليهم أجمعين.

***

ولعلنا نجمل ما وقر في أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها، بعيدًا من الخصومة، بعيدًا من زمانها، بعيدًا من الشبهة فيها، لأنه قال كلمته وفدك في يديه ينزل عنها باختباره، لا يدعوه إلى ذلك داعٍ غير وحي ضميره ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل في مستهل عهده بالخلافة: «إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف[1] المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فسألته فاطمة إياها فقال: ما كان لك أن تسأليني وما كان لي أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل، ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله، ثمولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك، فصارت لي وللوليد وسليمان، فلما ولي الوليد سألته حصته منها فوهبها لي، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لي، فاستجمعتها، وما كان لي من مال أحب إليَّ منها، فاشهدوا أنني قد رددتها إلى ما كانت عليه».

***

(1) يوجف: أوجف الفارس فرسه حثه لكي يجد في السير.

في هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شئوون بنيها والابتعاد من الحياة العامة، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة[1] قرباها، وهما مسألة الخلافة بعد النبي ومسألة الميراث من فيئه، وإحداهما مما نسميه في لغة عصرنا بالسياسة العليا، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية، ولكل منها جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسة من نحوها.. أما في الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفي غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة إيمان بحقها تثبت عليها و «شخصية» مستقلة لا يهمل لها حساب.

(1) وشيجة: الوشيجة: عرق الشجرة وما التف من الأشجار ونحوها. يقال: بينهم وشائج النسب.

وفاتها

قلنا في «عبقرية محمد»:

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحارت في تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة، وهو لا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه.

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجري على سُنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالإتقان في مزية أخرى.

***

فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير.

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى.

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه، فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجود ذلك على نسله وينتقص من قسمة في أبنائه، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور، فإذا أداها في صورة أعفى منها في الصور الأخرى، أو كأنما هي مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد إلا بثمن غال يحسب عليه، ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الأنحاء.

والإنسان أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر في تجديد النسل وزيادة عدده.

فهل يجوز لنا أن نقول: إن العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم بإصلاح شئون الناس، فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريقة الذرية؟

إن قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التي أشرنا إليها، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضي بنا إلى الجزم أو إلى التغليب.

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا، وفيهم أنبياء معظمون لا شك في سيرتهم من هذه الناحية، كعيسى عليه السلام..

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية، أو رزقوا ذرية كلها إناث، أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة.

وتواريخ العظماء في جميع نواحي العظمة، وفي جميع الأمم، وفي جميع العصور، حافلة بالشواهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فهم الحكماء، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون، ويدخل فيهم القادة العسكريون.. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه، وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمي ومحمود سامي البارودي وحافظ إبراهيم.

فإذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها، وجاز لنا أن نفهم أن إصلاح شئون النوع الإنساني ضريبة تغني عن ضريبة الذرية في بعض الأحوال، فأين ترانا نجد تلك الضريبة في أرفع حالة وأغلى قيمة إن لم نجدها في رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين في كل جيل؟ وأي أبوة روحانية تغني عن أبوة اللحم والدم كما تغني

أبوة النبي الذي يتكفل بتربية الأرواح في أمته، وفي أمم لا يلقاها في زمانه، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان؟!

نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية، ونرى تكافؤًا في الجانبين جديرًا بالملاحظة والاعتبار.

***

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء في زهرة الشباب، في الثلاثين أو ما دون الثلاثين.

مات الذكور من ذرية محمد صغارًا لم يجاوزوا سن الرضاع، وعاش الإناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر، ومنهن من لم ترزق قوة البنية في عنفوان الشباب.

وكانت الزهراء نحيلة سمراء، يمازج لونها شحوب في كثير من الأوقات، وقد رآها النبي ﷺ في مرض وفاته فقال لها إنها أسرع أهله لحوقًا به، فلم تمض ستة أشهر، وقيل أقل من ذلك، حتى لحقت به في تلك السن التي تستقبل فيها الحياة.

وكانت تشكو حيناً بعد حين، ويعودها النبي يواسيها في مرضها، فإذا هو يواسيها كذلك في حاجتها، زارها يومًا وهي مريضة فقال لها: «كيف تجدينك يا بنُية»؟ فقالت: «إني لَوَجِعَة». ثم قالت: «وإنه ليزيدني أني ما لي طعام آكله».. فاستعبر ﷺ وقال: «يا بنية! أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين»!

وزارها يومًا وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة»..

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال[1]، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقًا بين ذويه وزوجاته، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعًا حين لا يجد النبي ما يفرقه بينهم، وقد شكت زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين

(1) الأنفال: النفل بفتحتين: الغنيمة والهبة.

التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه!

لله أكبر!..

***

مثل محمد يعلو على إشفاق المشفقين، ومن كان في قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدًا، ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الإشفاق، فذلك هو الإعظام غاية الإعظام وذلك هو المرتقى الذي قيل فيه:

وبعيـــدٌ بلـــوغ هاتيـــك جـــدا تلـــك عليـــا مراتـــب الأنبيـــاء

أن محمدًا يبكي، لأنه يرى أحب الناس وأقربهم منه جائعة مرهقة، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها، وهو يملك كل شيء في الجزيرة العربية. ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين «وما برهان النبوة عند محمد!؟ »

الله أكبر.. إن لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أي شيء يكون؟

***

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يعُرف من وصفه، فإن العرب لوصافون، وإن من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شكواها على شيء يشبه أعراض الأمراض التي تذهب بالناس في مقتبل الشباب، وكل ما يتبين من كلامهم أنه الجهد والضعف والحزن، وربما اجتمع إليها إعياء الولادة في غير موعدها، إن صح إنها أسقطت» محسناً « بعد وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار.

ونعود فنقول: إنها ضريبة النبوة، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات!

***

وحضرها الموت، وخذلتها جوارحها، وعزيمتهُا في مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل: «يا أمه! ائتيني بثيابي الجدد»، فلبستها ثم قالت: «قد اغتسلت، فلا يكشفن لي أحد كنفًا»[1] وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها: «أتستطيعين أن تواريني بشيء؟» قالت: «إني رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير». فعمل لها نعشها قبل وفاتها، ونظرت إليه فقالت: «سترتموني ستركم الله..» وتبسمت، ولم ترُ مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها.

***

وكانت وفاتها، على القول الأشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة، ودفنت ليلًا حسب وصايتها كما دفن رسول الله.

في كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلف من ذكر وأنثى.

فإذا تقدست في المسيحية صورة مريم العذراء، ففي الإسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول.

(1) كنفا: الكنف بفتحتين: الجانب والناحية. وهو يعيش في كنف الأمير؛ أي في ظله. وكنف لله: حرزه وستره.

شخصية الزهراء

من الواضح البيّن أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ؛ لأنها بنت نبي، وزوجة إمام، وأم شهداء.

ولكن لا يتضح هذا الوضوح، ولا يبين هذا البيان، أنها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصي» أو بصفتها التي كان لها أثر في حوادث التاريخ.

وهذا الذي نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء، فهي أصل قوي من أصل الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالاً طوالاً ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا، وفيما يلي من العصور.

لم يعرف التاريخ نظيراً لثبات بني علي وفاطمة على حقهم في الإمامة، أو في الخلافة.

***

حوربوا فيها زمناً، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه، كيزيد بن معاوية، فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعًا، وحاربوا فيها كما حوربوا، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة، ثم مائتين، ثم ثلاثمائة سنة، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية.

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بني أمية ثم من بني العباس، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان، وصنعوا بهم ما كان خليقًا أن يستأصلهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم.

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا ويسلموا للسيف، ويقعدوا مع الخالفين.

ولولا خصال فيهم لما كان هذا منهم.

فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة – ولا بد لها من نصيب من الوراثة – فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي، بل هي إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام.

بعض الأخبار يفيد إن صح وإن لم يصح، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا: إن عليًّا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاتها.

إن صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر أن القضية قضية الزهراء وأن الإمام يجاملها فلا يغضبها، وأنه كان يرى أن الخلافة أحق بأن نطلبه معرفة بحقه، فإن لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعي إليها.

***

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقى إليه بالاً، وهو في هذا الباب أدل من كثير، كالخبر الذي رُوِيَ عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير.

رووا أن الصديق رضي الله عنه قام على المنبر يخطب الناس، فما هو إلا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتاً نحيلًا يهتف: «ليس هذا منبر أبيك، انزل عن منبر أبي...»

والتفتوا فإذا بالصائح هو الحسن بن علي، ولما يبلغ الثامنة، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع في نفسه: «ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله... ما كان لأبي منبر، وإنه لمنبر أبيك»....

وسمع علي بالخبر فأرسل إلى أبي بكر رسولاً يقول له: «اغفر ما كان من الغلام، فإنه حدث، ولم نأمره»..

قال أبو بكر: «إني أعلم، وما اتهمت أبا الحسن».

وليست الزهراء ولا ريب هي التي أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال. ولكن الطفل يفهم عن أمه في هذه السن ما يغنيه عن الأمر والإيحاء، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشًا يتكرر بين أبويه في هذا الأمر، فوقر في نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة، ثم نهُي عنها فلم يعاودها.

***

في خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم.

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، وكانت مفطورة على يقين التدين، وكانت ذات إرادة لا تهمل في حساب شأن من شئونها، فظهر منها في المواقف القليلة التي نقلت عنها أنها كانت ذات إرادة لا تنسى في الحساب.

كان من اعتزازها بالانتساب إلى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم، فلم يكن أحب إليها من أن يقال لها: إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله.

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين: كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة، ولكنها أضافت إليه ما ورثته من أمها، أمها بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن غيرةً منه على الكعبة، وابنة عم ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته، غير مدعو ولا مأمور.

***

ومن فطرة التدين في وريثة محمد وخديجة أنها شديدة التحرج[1] فيما اعتقدته من أوامر الدين، حتى وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت: « دخل رسول الله ﷺ فأكل عرقًا[2] فجاء بلال بالأذان، فقام ليصلي، فأخذت بثوبه فقلت: يا أبة! ألا تتوضأ؟ فقال: مِم أتوضأ يا بنية؟ فقلت: مما مست النار. فقال لي: أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار؟».

فهي فيما تجهله تتحرج ولا تترخص[3] وتؤُثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها.

---

(1) التحرج: تحرج: فعل فعلًا يتحرج به من الحرج؛ أي الإثم.

(2) عَرْقًا: العرق: بفتح العين وتسكين الراء: العظم أخذ معظم لحمه، يكسر ويطبخ ويؤكل ما عليه من اللحم الرقيق.

(3) تترخص: الترخص في الأمر التسهيل والتيسير خلاف التشديد.

وقد ذكر غير واحد من الصحابة، وذكرت السيدة عائشة، أنها كانت أشبه الناس بمحمد في مشيتها وحديثها وكلامها، وزادت عائشة فقالت: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكي ثم تضحك إلى جوار رسول الله ﷺ في مرض وفاته، ثم علمت أنها ضحكت، لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب.

أما أنها كانت رضي الله عنها ذات إرادة لا تهمل، فقد بدا ذلك في أمر زواجها، وفي محاجتها لزوجها، ومحاجتها لأبي بكر وعمر، وفيما كان يتوخاه علي من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها.

***

وقد يكون من دلائل الإرادة في المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسُأل، وأنها لا تعجل إلى الحديث فيما تعلم فضلًا عما لا تعلم، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد، ولم تزد عليه.

ولا ننسى أن الزهراء قد غوضرت[1] وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين، فإذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة وهي في تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها، وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين.

(1) غوضرت: توفيت مبكرة.

الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة، يعنيها النسب، لأنها تعتمد عليه في مفاخرها كما تعتمد عليه في مصائرها، فهو الذي يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوي الرئاسة فيها، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة[1]، ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه، فالخليع عندهم من لا خلاق له[2]، فلا هو يبالي بشيء ولا يبالي به أحد، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته.

إن الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه.

لهذا حفظوا أنسابهم في الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة.

وبعد الإسلام وجب حفظ الأنساب، ولجأوا إليه في تدوين الدواوين كما لجأوا إليه في ميادين القتال، فكلما حمى وطيس[3] القتال نودي في القوم: انتسبوا. ليستحي المرتد من الهزيمة التي يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة في ذاكرة.

***

وعظمت العناية خاصة بذرية النبي ﷺ، صوناً للنسب الشريف، ودفعًا للأدعياء من طلاب الخلافة، فلم يقع لَبسْ قط في نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الإسلام. ولم ينهض منهم قط إمام مشكوك في نسبه على عهد الدولة الأموية، ولم يكن الشك في النسب مطعناً في دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية، ولم يزل أمرهم كذلك إلى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية. أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة في حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم إلى السيدة فاطمة، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب إليها رضي الله عنها.

---

(1) جريرة: الذنب والجناية.

(2) لا خلاق له: لا نصيب له من الخير.

(3) وطيس المعركة: التنور من حديد، وحمي الوطيس: اشتدت الحرب.

من ذاك ما روي عن المأمون أنه قال يومًا لعلي بن موسى الرضا: « بِم تدَعُون هذا الأمر؟ قال: بقرابة علي من رسول الله وبقرابة فاطمة رضي الله عنها، فقال له المأمون: إن لم يكن ها هنا إلا القرابة فقد خلف رسول الله ﷺ من كان أقرب إليه من علي أو من في مثل قدره، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعليٍّ في هذا الأمر حق وهما حيَّان، فإن كان الأمر كذلك فإن عليًّا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له».

***

قال رواة هذا الحديث: «فما أجابه علي بن موسى بشيء».

وظاهر أن علي بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبي العلاء:

تلـــوا بـــاطلًا وجلـــوا صـــارمًا وقـــالوا: صـــدقنا؟ فقلنـــا: نعـــم!

وإلا فما كان لحجة من أبناء علي وفاطمة – وقد رزقوا اللسن والفصاحة – أن يعجز في هذا المقام عن الكلام الذي يقال في الرد على كلام المأمون، وأقربه على اللسان أن عليًّا إن كان قد استولى على حقه فهم ورثته، وإن كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق، وقد سمع خلفاء بني العباس كلامًا كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين، وأيسره أن أحدًا من جدود بني العباس في حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها.

إلا أن دعاة الدولة العباسية إنما كانوا يدعون دعوى العلويين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة الولاء للمنتسبين إلى الزهراء، إلاَّ أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان.

قال العتبي: «كان بين شريك القاضي والربيع حاجب المهدي معارضة، فكان الربيع يحمل عليه المهدي فلا يلتفت إليه، حتى رأى المهدي في منامه شريكًا القاضي مصروفًا وجهه عنه، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع وقص عليه رؤياه فقال: يا أمير المؤمنين؟ إن شريكًا مخالف لك، وإنه فاطمي محض. قال المهدي: علَيَّ به! فلما دخل عليه قال له: يا

شريك بلغني أنك فاطمي؟ قال شريك: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي. إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى! قال: ولكني أعني فاطمة بنت محمد ﷺ قال شريك: أفتلعنها يا أمير المؤمنين؟ قال المهدي: معاذ الله قال: فماذا تقول فيمن يلعنها؟ قال: عليه لعنة الله ؟ قال فالْعَنْ هذا – وأشار إلى الربيع – فإنه يلعنها. قال الربيع: و الله يا أمير المؤمنين ما ألعنها. فقال شريك: يا ماجن! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجلس الرجال؟ قال المهدي: دعني من هذا. فإني رأيتك في منامي كأنك مصروف عني وقفاك إليَّ، وما ذلك إلا بخلاف عليٍّ، ورأيت في مناميك أني أقتل زنديقًا؟ قال شريك: إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه، وإن الدماء لا تسُتحل بالأحلام، وإن علامة الزندقة بينة. قال: وما هي: شرب الخمر والرشى في الحكم ومهر البغي. قال: صدقتَ، و الله يا أبا عبد لله، أنت و الله خير من الذي حملني عليك».

***

وحدث مثل هذا في معارض كثيرة، فَوُشِيَ بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم، واضطروا إلى التعلل لهم بغير تلك العلة.

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة، فانتقلوا من المناقشة بالحجة في حق العم وابن العم، والموازنة بين حق العباس عم النبي وحق عليٍّ ابن عمه، إلى إنكار النسب بتة، وساعدهم على ذلك تفرقة الأئمة الفاطميين في الأرجاء، واستتارهم بالدعوة، ووقوع اللبس في الكنى والألقاب، فطعنوا في انتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذي سيأتي ذكره في القسم الثاني من الكتاب، واشترك في هذه المنابذات أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم.

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم، لم يسَلَم من فتنة هذه الغواية، فقال وهو يتكلم عن ذرية إسماعيل بن جعفر الذي ينتسب إليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالإسماعيلية: «وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا، وشهد له بذلك رجل من بني البغيض، وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبي الحر علي بن محمد الشاعر ابن علي بن إسماعيل بن جعفر، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر، وكل هذه دعوى مفتضحة، لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين، وهذا كذب فاحش، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله إلا جاهل».

ونحن نخص ابن حزم بالذكر في هذا المعرض، لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك في مؤلف واحد ونسابة واحد.

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف، ولكنه في هذا المعرض خاصة عُرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعيةً من دواعي احتمالها وقبولها.

كان ابن حزم أمويًّا غالياً في التشيع للأموية، وكانت دولتهم في الأندلس على خطر من الدعوة الإسماعيلية، وبلغ من كراهته للإسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعي إلى المذهب الظاهري، أي المذهب الذي يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل، لأن مذهب الإسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الإمام.

بل قد بلغ من كراهته القوم أنه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه، فيلقبه بالبغيض بدلاً من الحبيب، ولعله لم يضع كتابه في جمهرة أنساب العرب إلا ليثبت حق بني أمية في الخلافة، لأنهم من قريش، فصعد بحق الخلافة إلى جد الأمويين والهاشميين، وقال في مقدمة كتابه: «ومن الغرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز إلا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء

الخلافة لمن لا تحل له، وهذا لا يجوز أصلًا» وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين إلى المناقشة في معنى الحديث القائل أن فاطمة سيدة النساء، وأنه لا يعني أنها أفضل نساء العالمين!

***

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء، ولكننا نقول: إن هواه قد جنح به إلى قبول ما ليس بحجة في إثبات نسب أو دفع نسب، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفي والإثبات.

وفيما يلي كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفاصيل، ونسلف القول في تلخيصه فنقول: إننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذي يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفي ذلك النسب، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك في مطاعن الطاعنين، وهذه الشبهات في روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه.